مجلة الاتحاد العربى للنشر العلمى
الإصدار الثانى عشر
المجلد (٣) العدد (١٢)
(١٠-١) ٢٠٢٢

United Arab Scientific Publishing Company

مجلة الاتحاد العربى
للنشـــر العلمـــى

القصور الجبلية والصحراوية في الجنوب التونسي: هوية اجتماعية وتراث مهدد

د/ يحيي محمد الشافعي
(الجمهورية التونسية)
نشر إلكترونياً بتاريخ: ١ أكتوبر ٢٠٢٢ م

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الفضاء الأنثروبولوجي في الجنوب التونسي من خلال تحليل القصور الجبلية والصحراوية، وعلاقتها بالهوية الاجتماعية لسكانها. تسلط الدراسة الضوء على دور هذه الفضاءات في تشكيل الهوية الثقافية للأمازيغ والعرب في المنطقة، ومدى تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياحية على استدامتها.

يُظهر البحث أن القصور الجبلية كانت في الأصل ملاذًا أمنيًا ومستودعًا زراعيًا، لكنها تحولت اليوم إلى معالم سياحية تعكس التراث المعماري والحضاري. كما يكشف عن التهديدات التي تواجه هذه القصور نتيجة الإهمال وعدم الاهتمام بترميمها، مما يجعلها عرضة للاندثار. يوصي البحث بضرورة تبني سياسات واضحة لحماية هذه المعالم، وإدراجها ضمن التراث العالمي للحفاظ على هويتها الثقافية وتعزيز دورها في التنمية المستدامة.

الكلمات المفتاحية:

(الفضاء الأنثروبولوجي، القصور الجبلية، القصور الصحراوية، الهوية الاجتماعية، التراث المعماري،)

المقدمة:

يمكن القول أن القصور الجبلية ظاهرة إنسانية عرفتها جميع المجتمعات، منذ القديم كان هدفها الأول الحماية حيث إن الإنسان اجتماعيا بطبعه ويبحث دائما للعيش داخل أماكن أمنة لتوفير الحماية والشعر بالاستقرار داخل الجماعة ،فهو بذلك يطبع مدينته بطابعه الثقافي الخاص بها الذي يميزه عن باقي المجتمعات الأخرى فالقبائل الأمازيغية التونسية والليبية لا تختلف عن بعضها ولكن تختلف عن القبائل العربية فالأمازيغ يكون لهم الارتباط القوي بهذه المساكن أما العرب هم رحل يبحثون دائما عن المراعي في السهول يقول لويس ويرث "أن المدينة هي الموطن الطبيعي للإنسان المتحضر وهي لهذا السبب منطقة ثقافية تتميز بنموذجها الثقافي الخاص بها (روبرت باراك ١٩٨٨)"لكن تعريفه هذا يندرج ضمن الإيكولوجيا الحضرية ومن جانب أخر يرى الأستاذ عبد الحليم دليمي ان المدينة "هي جسم وعقل وعادات وتقاليد وهي إنتاج اجتماعي، تاريخي ،،وعمل فني وهي تحمل حياة وأدبا (مجلة العلوم الاجتماعية عبد الحميد دليمي ٢٠٠٦)وهي بذلك وعاء يحوى البناء الفوقي للمجتمع وحسب تعبير ماركس فهي تنتج وتعيد نتاج أسلوب الحياة الخاصة بسكانها كما يرى ابن خلدون أن "المدن قرار تتخذه الأمم بعد تحقق الترف ودواعيه .من اجل القرار والمأوى ،لذلك وجب أن يراعي دافع للمضار وتسهيل المرافق لها (ابن خلدون: المقدمة ،بيروت الج ٢٠٠٧) ولكن ابن خلدون ينظر للمدينة من تصور مادي اقتصادي وهذا ما يحقق الاستقرار ولتحقيق هذا الهدف لابد من تحقيق الأمن والاستقرار، ولكن هذا الاستقرار لدي الأمازيغ هو البحث عن الأمان وهذا ما جعلهم يقتنون الجبال التي اختلفت عن بقية القبائل العربية الرحل وهذا ما يمكن ان نستنتج عنه شجاعة هذه القبائل العربية التي اتخذت من الخيام مساكن عكس الأمازيغ .الذين سكنوا منذ القدم الكهوف والمغارات والقصور الجبلية من أجل الحماية من المخاطر الطبيعية والحروب ولكن الفاعل الاجتماعي حاول تطوير هذا المكان بالفعل الثقافي ولكن تبقي الخصوصية الاجتماعية هامش تحكم هؤلاء الأمازيغ في هذا الفضاء الاجتماعي من خلال التصميم واللغة التي برزت أهميتها في الأبعاد الهوية الاجتماعية وذلك من خلال امتلكهم لهذا الفضاء والانسجام معه عكس العرب ومن هذه الفرضية علينا الاستعانة بدراسة هذه القصور وسكنها

- الإشكالية:

من المفارقات التي انطلق منها هذا البحث هي هذه القصور الجبلية التي من الفضاء الأنثروبولوجي السكاني إلى الفضاء الأنثروبولوجي السياحي التي تمثل الواقع السوسيو ثقافي ورغم من التوسع السكاني التي شاهدته هذه المناطق الا انها حافظت عن الخصوصية الاجتماعية لسكانها الأصليون خاصة اللغة ولكن النمط العمراني تأثر يشكل كبير بالنمط الغربي وعليه يمكن ان نحدد مقاربتين أساسيتين

الأول: بين ماهو سوسيو ثقافي وماهوا سياحي يتجسد ذلك بالمكان وما مدي تأثره في هذا الفضاء

هذه القصور الصامدة على تخوم ولاية تطاوين تنقسم إلى نوعين: حيث نجد "القصور" الموجودة في المناطق الجبلية مثل قرية "شنني" وقرية "دويرات" و"قرماسة"، وهي "قصور جبلية"، ميزة وهي قصور تقع في قمم الجبال وتطوقها منازل سكان معمرة كامل الجبل، فيخال للزائر أن هذه القرى معلقة بين السماء والأرض، إذ تعانق السحاب بشموخ فهي ثابتة وراسخة في محيطها رسوخ أشجار التين والزيتون التي تحيط بهذه القرى باعتبار أن سكانها يمتهنون زراعة الزياتين منذ أن استقروا في هذه الربوع.

هذا بالنسبة للنوع الأول من القصور، أما النوع الثاني فهي "القصور الموجودة في السهول وهي عديدة وأكثر قربًا للمناطق الصحراوية، ولذلك تصح تسميتها بالقصور الصحراوية أكثر من نظيرتها الجبلية، لكنهما يلتقيان في تسمية الشكل المعماري أي "القصر"، لكن التضاريس فرقت بينهما في التوصيف بين الجبلي والصحراوي وحتى من ناحية التركيبة السكانية.
بالعودة للقصور الصحراوية نذكر أشهرها "قصر أولاد سلطان" و"قصر أولاد دباب" و"قصر الزهرة" وعديد من القصور وترتبط هذه القصور بالقبائل القاطنة هناك.
الجدير بالذكر أن وجه الاختلاف بين"القصور الجبلية" و"القصور الصحراوية" أنها مرتبطة بالقرى وسكانها "الأمازيغ" الذين يقطنون هذه القرى ويكون "القصر" متربعًا على قمتها، عكس "القصر الصحراوي" المتمركز في السهول، فهو مرتبط بالقبائل العربية الرحل التي تعتمد النشاط الرعوي أي أنها لا تستقر بجانب القصور.
القصور وهي تقف على ناصية التاريخ تصارع الزمان والمكان في شموخ وتحيي أمجاد الغابرين
تتجلى وظيفة "القصر" الذي يتكون من عدة غرف قد تصل لقرابة ٣٠٠ غرفة، فهو مخزن المحاصيل الزراعية مثل زيت الزيتون والقمح والشعير وغيرها، إذًا فالقصر هو "مخزن" أو "مستودع" للقبائل وللعائلات، لذلك فإن حتى عملية بناء القصر تكون عملية جماعية وتطوعية وتستخدم في عملية البناء "الجبس" المتوفر بكثرة بهذه المنطقة وكذلك الحجارة وتستخدم أشجار النخيل لصناعة الأسقف والأبواب.
تذهب بعض المصادر إلى أن هذه "القصور" كانت تعتبر محطات استراحة لقوافل الذهب والعاج والعبيد التي كانت تأتي من إفريقيا جنوب الصحراء. ويبلغ إجمالي عدد القصور الصحراوية والجبلية ١٥٠ قصرًا ومصنفة ضمن التراث الوطني للجمهورية التونسية ويقام كل سنة مهرجانًا دوليًا يسمى "المهرجان الدولي للقصور الصحراوية"، لكن تبقى الغاية الأساسية هي تسجيل هذا الإرث المعماري ضمن التراث العالمي وذلك للمحافظة عليه وترميمه خاصة أن بعض "القصور" حالتها سيئة بسبب سقوط أجزاء نتيجة سوء المناخ.
هذه القصور وهي تقف على ناصية التاريخ تصارع الزمان والمكان في شموخ وتحيي أمجاد الغابرين وتصد رمال الصحراء، لتكن شاهدةً على حكايات مرت ولن تزول من ذاكرة شعب صمد صمود المحاربين، يجب أن تأخذ نصيبها من الاهتمام باعتبارها إرثًا بشريًا وحضاريًا.
الهوية الاجتماعية: الأنثروبولوجيا تتقاطع مع عديد العلوم حسب موضوع الدراسة والبحث وهو حتما يتقاطع مع الهوية الاجتماعية ومن أوائل رواد علم الاجتماع الذين حاولوا تقديم تصور لهذا المفهوم نجد "دوركايم 'الذي يرى أنه "يوجد داخل كل فرد كائن جمعي يتمثل غي الأفكار والأحاسيس والعادات والرموز والقيم التر تعبر عن شخصية الفرد وعن الجماعة التلى ينتمي إليها لأن هذا الكائن من مكونات الحيات الاجتماعية للهوية .

المصدر: بحث ميداني
وبالعودة إلى تاريخ القصور الصحراوية وهي التي تشكل اليوم رافدا مهما للسياحة والثقافة وإرثا انثروبولوجي تاريخي عريق، ومصدر إلهام للكثير من المؤرخين لكتابة بحوث ودراسات وحتى روايات توثيقية تتحدث عن تاريخ المنطقة برمته وعن مميزاتها الحضارية والاقتصادية والاجتماعية، فإن البربر والأمازيغ كانوا أول من شيد تلك القصور في العصور الوسطى وتحديدا في منتصف القرن الخامس للهجرة أو الحادي عشر ميلادي.

وبحسب تصريح الباحث في التاريخ والآثار في جهة الجنوب التونسي، الدكتور علي الثابتي فإنه يمكن تقسيم القصور الى ثلاثة أجيال،

- جيل أول :وهو الأقدم والذي جاء فوق قمم الجبال وتميز تصميم قصوره بأنه لا يخضع للأشكال الهندسية المستقيمة وإنما راعى أشكال القمم التي بنيت فوقها مع عدم وجود الساحات

وأضاف ألثابتي أنه "بعد ذلك تم تشييد قصور

- الجيل الثاني :

وهو أكثر انتظاما بساحات مربعة ومستطيلة وبعدد من الطوابق يصل إلى خمسة طوابق ثم جاءت قصور الجيل الثالث في الفترة المعاصرة وهي القصور التي تميزت بساحات كبيرة وذكر كذلك، أن أول من شيد القصور الصحراوية هم قبائل البربر الذين سكنوا تلك المناطق في جهتي تطاوين ومدنين في الجنوب التونسي وكانت هذه القبائل (بنو سليم ، والغديري والدويري، والحداد وغيرها) شيدت هذه القصور لخزن المحاصيل الزراعية والحفاظ عليها لأطول مدة ممكنة، كما كانت القصور أيضا ذات أغراض أمنية حيث كانت بمثابة الحصون التي تحمي السكان وقال علجان لـ"إرم نيوز" إن "الغرض الأساس من تشييد القصور هو خزن المنتجات الزراعية من زيت أو قمح أو شعير بما أن هناك طرقا خاصة للخزن تسمح بالحفاظ على سلامة تلك المواد لمدة تزيد أحيانا عن خمس سنوات، وفي الآن نفسه كانت القصور ملاذا للقبائل البربرية وأضاف أيضا أن "القصر هو مجموعة من الغرف التي تم بناؤها من الحجر والجبس وأغصان الأشجار وسعف النخيل بما يجعلها متماسكة وصلبة فضلا عن مواقعها الإستراتيجية التي جعلتها تصمد.أمام الطبيعة وأوضح أن "بعض الصور والمكونات وبعض النقوش الموجودة على جدران الغرف، تعطي فكرة للباحثين وكثيرا ما كانت مصدرا لهم لتدوين مؤلفاتهم عن جوانب حضارية واجتماعية واقتصادية عن تلك الفترات التاريخية، للقصور الصحراوية دور ثقافي وسياحي وتاريخي وتحولت القصور عبر التاريخ من حصون للأمن والحماية ومراكز للخزن، إلى روافد هامة للسياحة حيث يرتادها السياح من مختلف البلدان كما أنها تعد مواقع أثرية تاريخية تم تسجيلها وتمتد القصور الصحراوية في محافظتي تطاوين ومدنين (جنوب شرق) ويبلغ عددها ما يقارب ١٦٠ قصرا من بينها قصر الحدادة الذي يقع في مدينة غمراسن، وقصر أولاد دباب وقصر أولاد سلطان، وهو أحد أهم قصور الجنوب التونسي.

وينقسم قصر أولاد سلطان إلى ساحتين تحيط بهما غرف مبنية على مستويات مختلفة ومساحات متفاوتة.أما قصر بني بركة فهو قصر يقع على قمة جبل بني بركة شرق مدينة الرقبة من ولاية تطاوين.كما يوجد قصر شنني الذي يقع في القرية البربرية "شنني" بولاية تطاوين وعلى ارتفاع قدره ١٥٠ مترا تقريبا فيما يختلف عدد الغرف من قصر إلى آخر، وعادة ما يقارب ٢٠٠ أو ٣٠٠ غرفة بحسب عدد الطوابق تعتبر الدويرات وشنننني قطوفه وتونكت والمقدميني والغمراسنية من أهم القبائل الأمازيغية في ولاية تطاوين، بينما يعد الودارنة، أولاد عبد الحميد والعواديد وأولاد سليمان وأولاد شهيدة وأولاد دباب، وأيضا قبائل العجاردة والدغاغرة والمقابلة والذهيبات الهلاليين، وأيضا قبيلة الجليدات وهم أدارسة أشراف من آل البيت، أهم القبائل العربية في الولاية. وحل العرب بداية مع الفتح الإسلامي ثم حلت أعداد كبيرة من أهل البيت النبوي بسبب ما تعرضوا له من اضطهاد في المشرق، وأخيرا حلت قبائل بنو هلال وبنو سليم التي أرسلها الخليفة الفاطمي في القاهرة بعد استقلال الصنهاجيين في القيروان بحكم افريقية (تونس اليوم وشرق الجزائر وغرب ليبيا

أما عن الإنسان فقد استوطن تلك الربوع منذ عصور ما قبل التاريخ وهو ما يؤكده وجود رؤوس سهام وبعض الأدوات الحجرية المتنوعة كان يستعملها إنسان تلك العصور الغابرة، وتوجد هذه السهام والأدوات في محطة تيارات وفي عمق الصحراء بعد أن تغير المشهد العام بسبب التغيرات التي طالت كوكب الأرض. كما توجد في الولاية كهوف صخرية، على جدرانها رسوم تتحدث عن الحياة اليومية والمعتقدات التي سادت في ذلك الزمن عند سكان هذه الجهة. وهذه الكهوف تقع في كل من وادي عين دكوك وفي منطقتي جرجر والدويرات، كما توجد كهوف أخرى قرب مدينة غمراسن الواقعة ضمن الولاية.

وتعاقبت الحضارات على منطقة تطاوين ومنها الحضارة القرطاجية لكن تأثير هذه الحضارة التي هيمنت على غرب المتوسط في عصر ما، لم يكن كبيرا على جهة تطاوين باعتبار أن القرطاجيين كانوا يحبذون التواجد بكثافة على البحار والمناطق الساحلية لأن نشاطهم الأساسي كان التجارة. وحتى الحضارة الرومانية لم تؤثر كثيرا في أمازيغ تطاوين رغم إنشاء الرومان لمبان ذات صبغة دفاعية مثل الحصون ومنها تلالت وحصن رمادة ومنشآت زراعية كالسواقي والسدود.

وعرفت ولاية تطاوين الفتح الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة وهو ما جعل القبائل الأمازيغية مثل رفجومة ولواته ومطغرة ورتاتة وهوارة تتحصن بأعالي الجبال في قرى جبلية وأنشأت قلاعا في قمم الجبال مثل شنني وقرماسة والدويرات، وتركت هذه القبائل في البداية السهول للعرب القادمين من المشرق. ومع تواصل الاستقرار العربي في المنطقة وغزو بني هلال وبني سليم واستقرار بعض القبائل العربية على غرار أولاد دباب والمحاميد في الجنوب الشرقي، انصهرت القبائل الأمازيغية مع العرب الذين تخلوا تدريجيا عن حياة الترحال واستقروا في التجمعات السكنية الجديدة الناشئة.

لقد أنشأ سكان تطاوين من الأمازيغ والعرب القصور الجبلية ثم القصور السهلية وهي مواقع كان يحتمي فيها السكان في أقصى الجنوب التونسي من الغزو الخارجي في البداية، ثم تحولت إلى أماكن لتخزين الغذاء والإنتاج الزراعي بأنواعه. وتأسست حول هذه القصور لاحقا المدن وأهمها مدينة تطاوين عاصمة الولاية ومركزها والتي هي أكبر ولاية في تونس من حيث المساحة.

وتعاقبت على الولاية دول عديدة في العصر الإسلامي فكانت هذه المنطقة جزءا من ولاية افريقية الأموية والعباسية حتى حدود عهد هارون الرشيد والتي كان ولاتها يقيمون في مدينة القيروان التونسية. ثم خضعت الجهة للأغالبة والفاطميين والصنهاجيين الذين حصل الغزو الهلالي في زمنهم، فالموحدون الذين جاءوا من الغرب والحفصيون الذين حصل في زمانهم الغزو الإسباني ثم جاء العثمانيون والمراديون والحسينيون الذين حدث في عهدهم الاستعمار الفرنسي.

قاوم أهالي ولاية تطاوين الاستعمار الفرنسي مثل كل جهات البلاد التونسية، وانخرط أبناء المدينة في النضال المسلح والسياسي ضمن الحزب الحر الدستوري. وبرز عديد المناضلين والأبطال الأشاوس من أبناء المنطقة خلال الحقبة الاستعمارية وأيضا خلال المعارك التي خاضها الجيش التونسي بعد الاستقلال ضد الجيش الفرنسي الذي بقي يرابط في الجزائر ويحتلها ست سنوات بعد استقلال تونس وأراد الاحتفاظ ببعض المواقع في التراب التونسي.

ولعل أهم المعارك التي خاضها أهالي جهة تطاوين ضد المستعمر معركة رمثة التي حصلت في ٢٥ ايلول/سبتمبر ١٩١٥ وقادها سعد بن عون، ومعركة مغني التي حصلت في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥ ومن أبطالها الأخوة عبد اللطيف وخليفة بن عسكر والمدني الجليدي.

ومن المعارك التي شهدتها ولاية تطاوين بعد الاستقلال بين الجيشين التونسي والفرنسي معركة رمادة الخالدة التي حصلت سنة ١٩٥٨ والتي استبسل فيها أبناء المنطقة لتحرير الجيوب المحتلة على التراب التونسي رغم توقيع اتفاقية الاستقلال. وقد استعمل الفرنسيون في تلك المعركة طائرات قادمة من الجزائر

المحتلة وقتئذ لقصف رمادة من دون رحمة واستشهد في هذه المعركة المناضل التونسي الشهير مصباح الجربوع أصيل منطقة بني خداش التابعة لولاية تطاوين.
وتعد هذه المعركة التي أبلى فيها جيش الخضراء البلاء الحسن امتدادا تاريخيا لثورة الجنوب التي حصلت سنة ١٩١٥ والتي في سياقها التاريخي جاءت معركة رمادة. ويؤكد البعض على أن معركة رمادة هي رد على سلسلة الاعتداءات الفرنسية التي استهدفت الدولة التونسية المستقلة حديثا بتعلة ملاحقة المقاومين ن الذين يساعدون الثوار الجزائريين في حرب استقلالهم.

- أهم معالم ولاية تطاوين

أهم معالم ولاية تطاوين على الإطلاق هي القصور الصحراوية أو الأمازيغية وأهمها قصر أولاد سلطان وأولاد دباب وحدادة، وتوجد هذه القصور تحديدا في الجنوب الغربي للبلاد (بين منطقتي مطماطة وتطاوين) حيث يصل عددها إلى حوالي ١٥٠ قصرا، والقصر التطاويني العجيب في معماره هو عبارة عن مخزن فيه غرف تخزين تستعملها قبيلة أو عدة قبائل لحفظ المؤن. وهو مبنى جميل في شكله وغريب أيضا ويميز المنطقة بأسرها ولا يوجد له مثيل في تونس وخارجها، ويقصده السياح من جميع أنحاء العام. وهو دليل على قدرة الإنسان على التأقلم مع الطبيعة وحفظ مؤونته في ذلك الطقس الحار والجاف الذي يميز المنطقة.
بنيت هذه القصور في البداية في الجبال ثم انتقلت إلى السهول، وتقع قصور الجبال في مناطق وعرة يصعب الوصول إليها وغالباً ما يستخدم للتخزين ومن هذه القصور الجبلية قصر أولاد سلطان. أما القصور السهلية فتقع في السهول وتحتل مساحات كبيرة. وقد تم تصوير عديد الأفلام العالمية في هذه القصور الغريبة في معمارها على غرار الفيلم الأمريكي الشهير "حرب النجوم."
وتوجد في تطاوين أيضا حصون وقلاع لعل أهمها حصن رمادة، وتلالت وحصن الفطناسية إضافة إلى تحصينات قديمة ومنشآت زراعية تاريخية وسدود ومواجل وفسقيات عتيقة ما زالت آثارها في كامل ربوع الولاية
وبذلك أصبحت القصور الصحراوية في الجنوب التونسي.. كنوز يلفها النسيان وهي تمتد على أكثر من نصف مساحة الجنوب التونسي، وتعتبر من أهم روافد السياحة الصحراوية، لأنها تمثل أحد الرموز التاريخية لنمط حياة الأمازيغيين في محافظات جنوب البلاد، وذلك لفرادة معمارها وهندستها، لكنها تعاني اليوم من الإهمال والنسيان من قبل السلطات المختصة التي لم تعن بترميم هذا التراث القيم.

ورغم مرور أكثر من ٣٠٠ سنة على تشييدها لا تزال القصور الصحراوية صامدة متربعة على الرمال التونسية لتكون رمزا لعراقة فن العمارة بجنوب البلاد وتميزه بإرث حضاري على مر التاريخ، لكن باحثين في التاريخ والتراث يحذرون من تحول هذه القصور إلى رماد إذا لم يتم الاعتناء بها باعتبارها شواهد تاريخية تتفرد بنمط معماري خاص.
والقصور الصحراوية عبارة عن حصون أقامها الأمازيغ هربا من زحف بني هلال وبني سليم في أواسط القرن الحادي عشر مثلما تشير إلى ذلك نقوش محفورة في سقف إحدى غرف "قصر زناتة" و"القصر القديم بالمزطورية" على التخوم الصحراوية. ويقول المؤرخون إن "القبائل الأمازيغية ابتكرت هذا الطابع المعماري وشيّدت قصورها على أعالي الجبال هربا من الغزوات التي كانت تتعرض لها من القبائل العربية التي وصلت إلى المنطقة قادمة من المشرق العربي إلى شمال أفريقيا في القرن الحادي عشر الميلادي."

والقصور التي بنيت على المرتفعات هي عبارة على طوابق من غرف صغيرة فوق بعضها، يصل ارتفاع الواحدة منها إلى ٦ أمتار وعرضها بين ١.٥ متر ومترين، وعادة ما يكون القصر في شكل مستطيل. ويختلف عدد الغرف من قصر إلى آخر، وعادة ما يقارب عددها ٢٠٠ أو ٣٠٠ غرفة، مقسمة على طوابق قد تصل إلى ستة طوابق،

والداخل إلى القصر، تستقبله البوابة الكبيرة المصنوعة من خشب النخيل والمحصّنة بقفل حديدي ضخم يحرسه خفير مكلف من مجلس القبيلة. وبعد تجاوز البوابة نجد "السقيفة"، وهي ممر طويل مسقوف بخشب النخيل ويسمّى في اللهجة المحلية "سنور". ويقود الممر إلى فضاء واسع مفتوح، أرضيته مرصوفة بالحجارة الملساء ويسمى "الصحن" وهو الساحة المركزية للقصر، وعليها تطل كل الغرف والطوابق، وفيها كان مجلس أعيان القبيلة يعقدون جلساتهم التي يناقشون فيها شؤونهم. ويتحول "صحن" القصر أحيانا إلى محكمة لفض النزاعات القائمة بين أفراد القبيلة.

أما الغرف فتُشيّد بعضها فوق بعض وبسقف على شكل قبة وذلك لاعتبارات مناخية، فالغرفة معدة لتخزين المواد الغذائية ويجب أن تحافظ على درجة حرارة مناسبة لوظيفتها، ومن شأن القبة أن تعكس أشعة الشمس بعيدا عنها بخلاف السقف المسطح الذي يترك مجالا لحرارة الشمس كي تستقر فوقه. ويمكن الوصول إلى الحجرات العلوية بسلالم مصنوعة من الخشب أو بالحبال لإيصال المؤن ويحيط بها سور شاهق يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار للحراسة، إضافة إلى الحارس المتمركز عند مدخل القصر.

السبعيني عبدالله المدنيني، أحد مواطني مدينة مدنين (جنوب شرق)، يروي طريقة تشييد هذه القصور، حيث لم توجد في الماضي مواد بناء حديثة مثل الآجر والإسمنت وما إلى ذلك. ويقول المدنيني إنه "لإنجاز هذه الغرف كان أجدادنا يسقفون أكوام الحطب ومن ثم يضعون الجبس على شاكلة قباب ليقوموا في ما بعد بإشعال النار، وعندما يكتمل احتراق الجبس يأخذ شكل القبة."

وتبنى أسقف المداخل الرئيسية للقصور باستعمال الجبس والخشب، أما الأبواب فتصنع من خشب النخيل وعادة ما تجد مدرجا صغيرا (مجموعة من الأحجار) للربط بين طابق وآخر، بحسب المدنيني. ويضيف، أنه "في كل قصر يتم تعيين حارس حيث يتم وضع المؤونة، وتوزع في الغرف المختلفة بنظام معين، فالقمح والشعير يتم وضعهما في الغرف العالية كي يسهل سكبهما من فوق على ظهر جمل يكون في الأسفل، وتوضع بقية المواد الغذائية في الغرف السفلية."

بحث ميداني: قصور مدنين

هذه شواهد على نظام القبائل بالجنوب التونسية

تمتد القصور الصحراوية في محافظتي تطاوين ومدنين (جنوب شرق) ويبلغ عددها ما يقارب ١٦٠، أشهرها قصر "الحدادة"، الذّي يقع في مدينة غمراسن، (٣٠ كلم من مركز محافظة تطاوين)، وقصر "أولاد دبّاب" (١٠ كلم عن تطاوين). وتعني القصور الكثير لأهالي الجنوب التونسي، فهي تربطهم بتراثهم وتاريخ أجدادهم وتفاصيل نمط عيشهم التقليدي.

وللقصر وظائف أخرى مختلفة تتزايد وتتراجع بحسب المواسم والظروف الأمنية التي تشكل الشغل الشاغل لذلك العصر الذي تتناحر فيه القبائل.

ويلعب هذا المعلم المعماري دورا كبيرا في تأمين النشاطات التربوية والدينية والتجارية عند الإقامة حوله، وهي إقامة مؤقتة ومقتصرة على زمن التهديدات الأمنية وسنوات الجفاف، أما في ساعات اليسر والرخاء

فينتشر الأمازيغيون بين السهول والمراعي للزراعة والتجارة. ولعل طابعها الهندسي المميز هو ما مكّن بعضها اليوم من أن يتحوّل إلى معالم سياحية ومزارات على الرغم من الإهمال الذي يعانيه أغلبها.
ووفقا للمختص في التراث الحبيب علجان، فإن تشييد أول قصر كان في القرن ١٢ ميلادي، لكن القصور الصامدة تعود إلى ٣٠٠ عام، وكان أولها "القصر القديم" الموجود في منطقة المزطورية (١٥ كلم على تطاوين). ويقول المؤرخ منصور بوليفة، إن "وظيفة هذه القصور تحوّلت إلى تخزين الطعام، فكانت الغرف تقسم بين عائلات القبيلة حيث تودع داخلها محاصيلها السنوية من قمح وشعير وتمور وزيت زيتون وغيرها من المواد الأخرى. وفي القرون المتأخرة توجهت القبائل العربية في المنطقة إلى محاكاة النموذج الأمازيغي في التخزين، فأنشأت لها قصورا غير أنها اختارت السهول لتشييدها.
وقد ساعدت القصور الصحراوية القبائل العربية على التخلي عن حياة البداوة والتنقل بحثا عن مواطن الرعي وسهلت لها أسباب الاستقرار". وحتى الآن تظل هذه القصور خير شاهد على نظام القبائل الذي كان منتشرا في تونس قبل فترة خمسينات القرن الماضي، إذ كان في السابق كل قصر يسمى باسم عائلة معيّنة. كما تستمد هذه المعالم أسماءها من العائلات المالكة لها في ذلك الزمن، ففي محافظة تطاوين مثلا يوجد قصر "الحدادة" نسبة إلى عائلة "الحداد."

المصدر: بحث ميداني

وتعتبر تطاوين التي تعني بالبربرية "العيون" لغناها بالثروات الجوفية، قاعدة الانطلاق لزيارة هذه القصور على بعد ٦١٠ كلم جنوب العاصمة. ويقام في هذه المحافظة المهرجان الدولي للقصور كل سنة، وهو تظاهرة ثقافية فريدة تبرز نمطا معماريا مختلفا شيده السكان الصحراويون وأطلقوا عليه تسمية "القصر". وفي محافظة مدنين تسمّى القصور نسبة إلى ٨ عائلات كبرى في الجهة، ومنها القبائل الرحل التي استقرت هناك، ومن أبرزها قبائل "ورغمة" (قبائل بربرية استقرت في الجنوب التونسي.('
وفي محافظة تطاوين، ذات التضاريس الصحراوية، فإن القصور عادة ما تكون متباعدة عن بعضها البعض (من ٥ إلى ٦ كلم بين القصر والآخر)، في حين تكون بمحافظة مدنين حيث السهول الممتدة تكون القصور متجاورة وأحيانا تفصل بينها بضعة أمتار فقط. ويعد "قصر شنني" الواقع على بعد ٢٠ كلم من تطاوين أعرق وأكبر هذه القصور البربرية وأكثرها استقبالا للزائرين، ويلوح القصر الذي شيد في القرن الحادي عشر كبرج للطيور على قمة جبل.
ويعتبر قصر "الحدادة" بمنطقة غمراسن في تطاوين متاهة من الغرف يبلغ عددها ٥٦٧ غرفة تمتد على مساحة ٦٤٠٠ متر مربع، حيث قام المعهد الوطني للتراث التونسي بترميم جزء كبير منه ليصبح معلما سياحيا يزار بشكل دوري، في حين تحول القصر الموجود، وسط مدنين إلى متحف للعادات التقليدية. واستخدم قصر الحدادة سنة ٢٠٠٠ ديكورا لفيلم "حرب النجوم" للمخرج الأميركي جورج لوكاس الذي استقطب أكثر من ٥٠٠ مليون متفرج في العالم، كما تشير إلى ذلك اللوحة الموجودة أمام القصر.
إهمال وغياب المسؤولية
وبسبب الإهمال مازالت إلى غاية الآن ثلاثة قصور فقط من مجمل ٣٥ في المدينة. حيث تم استغلال أحد القصور الموجودة وسط المدينة، وأنجز فيه متحفا للعادات التقليدية ومسرحا للعروض الثقافية ومعرضا للعملة النقدية لأكثر من ١٥٠ دولة". ويهدف ل هذا المتحف إلى الحفاظ على ما تبقى من هذه المعالم الأثرية، رغم أنه تمت إزالة معظم القصور الموجودة بمدنين بعد الاستقلال في العام ١٩٥٦، كما تقلص الاهتمام بما تبقى.

وفي هذا المتحف نكتشف الحياة اليومية لقبائل المنطقة مثل ورغمة والتوازين والحواية وغيرها من القبائل العربية التي كانت تعيش في الصحراء، كما نكتشف العادات والتقاليد في الأعراس والجنائز والختان والأكل وكل ما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية. ويضم المتحف مجموعات نادرة من الفضة والأسلحة يعود بعضها إلى أكثر من ثلاثة قرون ومخطوطات ومجموعة من العملات الأجنبية تفوق ٣ آلاف قطعة، كما يوفر المتحف للحرفيات فرصة بيع منتجوهن.

ولكن علينا اليوم ضرورة التعجيل بترميم هذه المعالم والاستعانة بمختصين لترميم المعالم الأثرية والاعتماد على فنيي المصالح الثقافية المختصة لإنقاذ ما تبقى من هذه المعالم التاريخية الهامة". والسهر على إدراجها ضمن قائمة المعالم التاريخية المهمة، ونرجو من منظمة اليونسكو متابعة مطلب سبق أن تقدمت به تونس لتسجيلها كمعالم تاريخية، كما ندعو المنظمات الدولية المختصة إلى توفير الاعتمادات اللازمة لترميم القصور باعتبارها شواهد تاريخية.

قصر مدنين

"قصر مدنين" معلم اثري يتوسط قلب المدينة ويعد جزءً من موروث ثقافي جماعي يحفظ تقاليد الأجداد هذا الموروث اصبح مهددا بالاندثار فغرف القصر أصبحت تتهاوى الواحدة تلوى الأخرى..

أغلبها تصدعت وأصبحت تتداعى للسقوط رغم المطالب المتكررة بترميمها فعمليات الترميم شبه متوقفة منذ سنوات وحتى الغرف التي رممت لم ترمم وفق المعايير المطلوبة وفق تصريح أحد الحرفيين المنتصبين داخل القصر ويدعى أحمد الهادي بن حميدة.

- الخاتمة:

في نهاية دراستنا هذه يمكن القول إن الهوية الاجتماعية بالفضاء الأنثروبولوجي بالجنوب التونسي مرتبطة بالمكان بشكل وثيق وهو ما تبينه الأمثلة التي ذكرنها حيث لاحظنا أن الإنسان يصمم الفضاء ويبنيه ويستعمله تبعا لإبعاد هويته الاجتماعية كما هو الحال في هذه القصور المنسية التي أصبحت في طي النسيان وعلينا ان نضع بعض التوصيات تكون حول الأنثروبولوجيا الفضاء المكان في مشاريع إعادة الإسكان مع تحديد مقاربة تنطلق بقراءة الهوية الاجتماعية لهذا الفضاء

المراجع:

-1غماد غبذ الغني، صنصيبلنجيا الثقافت ، مشهض دساظاث النخذة الىكشبُت، بحروث، ٢٠٠٦، ص ٤٢٢.

-2مشاد وَبت، املعجم الفلضفي، داس الثلافت، اللاَشة، ١٩٧٩، ص .٤٦١

- 3الىكظمت غضِض ، الهِت مفاهيم عامليت مً اجل حىار بين الثقافاث، الإاشهض الثلافى الىكشبى لليشش

والخنصَپ،بحروث، ٢٠٠٥، ص .٤٥

- 4غضام أمحن، الخكيف الاجخماعي والهِت العرقيت لدي الشباب مً أصىل عربيت مغاربيت في فروضا، مجلت

غمشان، الكـذب ،١٤/٤٠ ،٢٠١٥ ص .٠٦
5 - Baru Michel et autres, Vocabulaire de psychosociologie, Références de positions, Edition Erès,
Paris, 2002, p 01.
-6 Robert Kurzban, Minimal Group Experiments, UCLA, Los Angeles, 2006, p 01